

2008

أسباب حدوث الاكتساب، ملاحظات حول تعلم اللغة العربية

يوسف باش

كلية الآداب والعلوم الانسانية، بني ملال، المغرب

Follow this and additional works at: <https://digitalcommons.aaru.edu.jo/dirassat>



Part of the [Arabic Language and Literature Commons](#), and the [Linguistics Commons](#)

Recommended Citation

باش, يوسف (2008) "أسباب حدوث الاكتساب، ملاحظات حول تعلم اللغة العربية", *Dirassat*. Vol. 13 : No. 13 , Article 7.

Available at: <https://digitalcommons.aaru.edu.jo/dirassat/vol13/iss13/7>

This Article is brought to you for free and open access by Arab Journals Platform. It has been accepted for inclusion in Dirassat by an authorized editor. The journal is hosted on [Digital Commons](#), an Elsevier platform. For more information, please contact rakan@aarj.edu.jo, marah@aarj.edu.jo, u.murad@aarj.edu.jo.

أسباب حدوث الاكتساب، ملاحظات حول تعلم اللغة العربية

Cover Page Footnote

قدم هذا العرض ضمن أعمال ندوة اكتساب اللغة عند الطفل ، تنظيم كلية الآداب ، فاس-سايس، في 21-22 أبريل *
2004

1. الاكتساب واللغة العربية:

الاكتساب في عمومته هو : تحصيل مجهول من معلوم ⁽¹⁾، مع ما يقتضيه ذلك من تحمل ومحاولة ومعاناة. وهو : تحصيل لمعرفة أساسا، على طريقة تثبيت العادات. وبالنسبة لاكتساب اللغة، فيعني بلوغ الذات مرحلة تعلم مواصفات اللسان ونواميس الكلام.

ورغم أن بعض الباحثين يضعون مراتب له، تبدأ بالتعلم المباشر، ثم التلقين الفعلي في المرتبة الثانية. وفي المرتبة الثالثة، التحصيل المعرفي من حيث هو تحسس لسنن أنظمة اللغة، بهدف ضبط أبنيتها الباطنة، فإن لهذا الموضوع تفرعات عديدة، يصعب ضبطها بمراتب نظرية.

ونعني هنا، أن الاكتساب هو علاقة جدلية بين أنظمة متعددة. لعل أدها اكتساب الطفل لغة أمه، مع ما يلف هذا الجانب من إشكالات، تخص طبيعة القوالب اللسانية الأولى المكتسبة عنده، وتخص أيضا قدرته على التخزين، وعلى التصرف.

كذلك، نصطدم بمشاكل تخص علاقة اللغة 1 باللغة 2 (وضع اللغة العربية في البلدان العربية، وفي المغرب). مع علمنا أن العربية الفصيحة ليست لغة أولى، وإنما يتم تعلمها - جزئيا على الأقل - عن طريق التلقين.

1 - 1. الاكتساب والفطرة:

بينت دراسات ⁽²⁾، أن الذات المتكلمة التي فطرت على لسان غير لسانها الأصلي، يصعب أن نجد عندها ملكة بنفس مواصفات ملكة المتكلم الأصلي في لغته. وهذا الأمر يبدو بالغ الأهمية، كلما كان هناك "تشويش" العناصر وسمات اللغة الأصلية، على اللغة "المعيار" التي تتعلم غالبا وتخضع للتلقين. وكلما طرح موضوع الفصل في معيار الفصاحة، بين الألسن - فصيحة وعامية - التي تتكلمها الذات الواحدة.

إننا، عادة، ما نقبل بوضع تكون فيه "العامية" نازلة في درجة الفصاحة، في مقابل اللغة الرسمية للبلاد - لغة الدين والدستور. وحين نكون أمام أنواع (أشكال) من "العرييات"، فإننا نقول بـ "الفصاحات" عوض الفصاحة الواحدة، أو "الفصيحات" عوض الفصيحة الواحدة ⁽³⁾.

(1) جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج. 1، ص. 114 / 115 .

(2) ذكر الفاسي الفهري (1986) في عرضه لخصائص المادة المعجمية في العربية الفصيحة، أن الطفل العربي يعامل نسقه بالاستناد إلى برامج قد تعود إلى النسق الكلي، أو الملكة اللغوية العامة. أنظر تفاصيل علاقة اللغة الأصلية باللغة الثانية في ص. 20 وما بعدها.

(3) أنظر الفاسي الفهري (1999)، وأنظر عبد السلام المسدي في كتابه: "التفكير اللساني في الحضارة العربية".

اكتساب ملكة اللسان أو "صناعتها" كما تدل عبارة ابن خلدون صراحة (المقدمة، ص 460)، تنتقل بين الجودة والقصور بحسب تمام هذه الملكة أو نقصانها. ويكون ذلك، أساسا، في التركيب، وفي التأليف الذي يراعي مقتضى الحال، تعبيراً عن المعاني المقصودة، لا في الإتيان بعناصر اللغة مفردة أو معزولة.

الاكتساب عند ابن خلدون أيضاً، يستمر بالتلقين والمران. لكن في درجة ثانية بعد الطبع والطبيعة. يقول:

"... فالتكلم من العرب حين كانت ملكة اللغة موجودة فيهم يسمع كلام أهل جيله وأساليبهم (...) كما يسمع الصبي استعمال المفردات في معانيها فيلقنها أولاً، ثم يسمع التراكيب بعدها فيلقنها كذلك ثم لا يزال سماعهم لذلك يتجدد في كل لحظة".

(ن.م، ص 461)

إن استمرار الملكة باستعمالها بعد التلقين، له نتيجة أخرى. وهي أنه حتى ولو كانت غير طبيعية في الذات المتكلمة، فإنها مرشحة لكي ترسخ، وتظهر كأنها طبيعية وجيلة في محلها⁽⁴⁾.

1 - 2. اكتساب العربية، بعض الملاحظات.

إن المهم في مسألة الاكتساب والفطرة، أن حالة الاكتساب الطبيعية ليست مربوطة بجنس الطفل (أو الصبي موضوع الاكتساب الأول)، وإنما هي مربوطة بنموه وارتقائه في المحيط، وبالتالي نمو أجهزته اللسانية المولدة.

ويستلزم هذا الوضع، بالنسبة للعربية، إبداء بعض الملاحظات ترتبط بالسليقة، واللحن، وبالأدواجية⁽⁵⁾. هذه الملاحظات هي التالية:

أولاً، لم يكن العرب قط، بحاجة إلى تعلم ضوابط لكلامهم، مع أن "العربية الفصيحة" لم تكن سليقة فيهم جميعاً. فلقد كانت هناك لغات اختلفت صوتاً وصرفاً وتركيباً أيضاً. ثانياً، المتكلمون بالعربية، هم أقدر على استخدام طرائقها بالدربة والمران، لا بالطبع والفطرة دائماً. والذي يدل على هذا، أن قبول الاحتجاج بمسألة وقوع اللحن عند العرب -

(4) يمكن الاستئناس في هذا الصدد، بخلاصات الدراسة التي قام بها ميشال زكريا. انظر كتابه: الملكة اللسانية في مقدمة ابن خلدون، 1985.

(5) في مقاله "اكتساب اللغة العربية والتعلم اللغوي المتعدد" شدد الفاسي الفهري (1999) على سلبيات تعلم العربية للنشئ، في غياب مناهج واستراتيجيات واضحة، تربط قطاع التعليم بقطاع التربية. انظر حديثه عن السلبيات، في ص. 1 وما بعدها.

حتى ولو كان محدودا كما تردد الروايات، ولم يكن بالظاهرة العامة - قد أكد أن العربية ليست سليقة عند كل العرب.

ثالثا، تعطينا الوضعية الحالية لاستعمال العربية حالتين:

1 - كون العربية الفصيحة تغيرت، أو تطورت بفعل العوامل السسيولسانية، وبفضل تفاعلها الداخلي، على نمط اللغات الأخرى.

2 - وجود لسانين في آن واحد، واحد فصيح والثاني عامي - لهجي، بينهما تداخل على مستوى المعجم، وتكامل على مستوى الوظيفة التعبيرية.

ولقد اقترح للخروج من مشاكل الازدواجية، بدء التفكير في تأهيل العاميات، وخلق لغة وسيطة بين العامية والفصيحة، لتضييق الفرق بينهما. إضافة إلى تشجيع الأبحاث والدراسات في تاريخ اللهجات وتطورها.

2. الاكتساب بين التأصيل العربي والنظريات الحديثة.

في هذا الجزء، ننظر إلى قضية الاكتساب من زاوية العوامل المحددة له، ومدى ارتباطها بمفاهيم خاصة. على أننا سنفصل، في عرضنا، بين قسمين: الأول، نقف فيه على بعض خلاصات التأطير الذي قام به محمد الأوراني (اكتساب اللغة في الفكر العربي القديم، سنة 1987). وفي القسم الثاني، نقف على خلاصات أخرى، نستقيها من تشومسكي (1987)، في مقاله "حول طبيعة واستعمال واكتساب اللغة". ثم خلاصات متفرقة، من بعض التحديات الخاصة بمجال علم النفس اللغوي أو السيكلولسانيات⁽⁶⁾.

2 - 1. خلاصات التأصيل العربي.

كيف يتمكن الطفل من إنجاز اللغة، بالاستناد إلى معرفة مجردة، لكن منتجة؟ في سبيل الجواب على سؤال قريب من هذا، تعددت طروحات المفكرين العرب (لغويين، وفلاسفة، وعلماء كلام، ومناطق، وأصوليين... إلخ). وكانت نصوصهم عميقة النظر، ولكن لم تكن بعيدة على التشخيص المعروف لديهم، الذي يربط بين العلوم الدنيوية والماورائيات، أو بين العلوم العقلية والعلوم النقلية.

(6) بعض هذه التحديات رجعنا فيها إلى عمل سلويين (1939) و(1979). أنظر المزيد من التفاصيل، في ص. 100 وما بعدها، في الفصل الرابع الذي خصه لنمو اللغة عند الطفل.

في هذه النقطة، سيعود الباحث إلى نصوص معينة، لعلماء مثل: ابن جني (في الخصائص)، والسيوطي (في المزهري)، وابن حزم (في الأحكام)، والفارابي (في كتاب الحروف)، والرازي (في المحصول)، وابن سينا (في البرهان، وفي الإشارات والتبنيات)، والقاضي عبد الجبار (في المغني)... إلخ.

2 - 1 - 1. فرضية إنسان ما قبل اللسان.

ذكرنا أعلاه، أن الأوراعي قد أكد حصول تناول مفكري العرب، لموضوع الاكتساب، ضمن التصور الكسبي المقابل للتصور الطبعي العقلاني، واقفاً على نصوص معينة تفيد ذلك. ونشير هنا، أن التصور الذي يشير إليه الباحث بـ: "الكسبي"، ليس بعيداً عن مجموع النقاشات التي دارت لمدى سنوات عديدة، بين النظرية الفطرية والنظرية التجريبية، في تحديد أصل القدرات عند الإنسان، وأشكال نموها.

يتعلق الأمر، بالاتجاه الذي سارت فيه النظريات والأبحاث، مما يمكن عدّه مدعماً لطرح "الكلية" (Universality)، ووجود "الفطرة"، أو "الجبلة" (وهو بالضبط ما يراد به من وجود العوامل البيولوجية لتطور هذه القدرات، وضمنها اللغة)، في مقابل اتجاه غير عقلاني، هو الاتجاه التجريبي.

لقد تناول الأوراعي هذا الموضوع، ليس من زاوية وجود قوى، هي أساساً من نمط نسق الأوليات والمبادئ المطبوعة في الدماغ (حيزها الدماغ). بل، من زاوية وجود استعداد في النفس فقط. في حين المبادئ والأوليات هي في خارج النفس، وإليها تنتقل. وهذا بالضبط ما يوافق عنده الطرح الكسبي، كطرح غير عقلاني.

يقول الأوراعي في فصل "تعلق النحو بالملكة العقلية"⁽¹⁰⁾، في سبيل الفصل في طبيعة الفرضية الأساس، المتحكمة في بناء الفكر العربي في حقل علم اللسان: "...الذي يفهم من الفرضية المذكورة، أن قوى النفس الانسانية في بدء وجودها، خلو إلا من الاستعداد المحض لتحصيل أصول تلك المبادئ التي يتوقف عليها عمل اللسان أو معرفته واكتسابه...".

ضمن هذا النقاش، طرح الباحث فرضية عمل سماها: "إنسان ما قبل اللسان" هي فرضية عمل للأسباب التالية:

(10) ن.م، ص. 132.

أ - كونها تتسجم مع الطرح الكسبي، الذي يراه مؤطرا لاشتغالات مفكري العرب في الاكتساب، وفي حصول المعرفة بالموجودات.

ب - التحديد في (أ) يحتاج إلى تدقيق مفاده أن قوى النفس الانسانية، قد تكون هي مصدر حصول المعرفة، وضمنها المعرفة اللغوية وامتلاك قدرة النحو، وقد يكون العالم الخارجي هو المزود الرئيسي. وفي هذه الحالة أيضا، يلزم الفصل بين مفهومين طلبا للتدقيق المذكور، هما: "التعلق"، و"الاستقلال".

ج - "التعلق" معناه أن خصائص هذه الأشياء في العالم الخارجي، تعود إلى ذات القوى النفسية، وكذلك قوانين انتظامها. فالمبادئ والأصول مطبوعة في النفس.

أما "الاستقلال"، فمعناه أن خصائص هذه الأشياء، وقوانينها وعلاقاتها، هي في استقلال عن النفس. أي، أن المعرفة تأتي من العالم الخارجي. في حين، تكون النفس مهياة بذاتها لتكتسبها.

"إنسان ما قبل اللسان"، في إطار الطرح الكسبي القائم على فرضية استقلال المعارف بخصائصها، وفرضية القوى المهياة بذاتها لاكتساب المعارف بما فيها اللغة، هو وصف له بعض الاستلزامات في مجال المعرفة باللغة، واكتساب نحوها ومعجمها. وله نتائج من زاوية التصور العربي للموضوع وتأصيله.

إذا كان النحو هو مجموع القواعد، التي تمكن المتكلم من إنجاز القول الحسن السليم، فإن أشكاله ومظاهره تسعى إلى وصف معرفة المتكلم بلغته، وقدرته على فهمها. ومن ثم، فإن امتلاك قدرة نحوية لا بد أن يتقدمها التهيئ والتحضير بشكل من الأشكال. وهذا هو الاكتساب. يبقى أن نشير، إلى أن الأوراعي قد ناقش أيضا، كيفية انتقال الفرد إلى بناء النحو، الذي سيعمله في إنتاج الأبنية والصور القولية، بهدف الإبلان والإفهام.

2- 2. بعض خصائص الاكتساب في النظريات الحديثة:

تقف النظريات، في أمر الاكتساب اللغوي، بين خيارين معروفين:

أ - نظرية تدرس النمو وتراقب السلوك، وضمنه اللغة، بإقصاء كل عودة إلى الحالات الذهنية. وبالمقابل، تبحث في عقد صلات بين المثيرات الخارجية وبين السلوك.

ب - نظرية عقلانية، تطورت في إطار ما يعرف بـ: "الثورة المعرفية"، تتصور التحديث حول اللغة منصبا على الذهن، وأن هناك ملكة نوعية للذهن هي المسؤولة عن استعمال واكتساب اللغة.

هذا النوع من التفاعل الافتراضي، كانت له نتائج هامة حول مشكل التعلم والاكتساب. إذ دفع إلى بحث طرق معالجة المعلومات والتمثيلات المرتبطة باللغة، خصوصا في جانب الخيار الثاني العقلاني، وهو الذي سنقف عنده.

2 - 1. نتائج الثورة المعرفية والنحو التوليدي.

ذكر تشومسكي في مقاله: "حول طبيعة واستعمال واكتساب اللغة" كيف أن أسئلة اللغة كانت دائما مركزية، وأنه كان لها جذور في مجالات فكرية أخرى، ولا سيما المجال المعرفي (Cognition).

إن معالجة اللغة، في ضوء المقاربات اللسانية الحديثة، ساهم في تقريب مجال دراستها من مجالات علوم الطبيعة وعلم النفس، وسرع في تقديم عدد من الطروحات، وفي بناء النظرية اللغوية العلمية. وهي النظرية التي استبعدت المبادئ الغريبة غير العقلانية، كالمبادئ السلوكية مثلا.

لقد شرعت النظرية اللسانية، في صياغة مبادئ تدخل ضمن التفسيرات العلمية للظواهر المدروسة، واستند العمل التحضيري في معالجتها، إلى الافتراضات الرياضية والمعرفية، وإلى تزويد الواصف بأدوات العمل المنهجية والنظرية. وكان هذا مما أفضى إلى طرح التصور التوليدي، في الخمسينيات من القرن الماضي.

الاكتساب بوصفه قضية، يتدخل فيها اللغوي بالنفسي والمعرفي، استفاد من نتائج الثورة المعرفية.

يقول تشومسكي إن ما نسميه بالثورة المعرفية، هو مجال يبحث في الحالات الذهنية المتعلقة بأمور الفكر، والتنبؤ، والإدراك، والتعلم، ثم الحركة. إنها تتصور الذهن كآلة، تعالج المعلومة التي هي مجموعة من التمثيلات المجردة، ثم تعمل على تطبيق حسابات عليها. مشكل "التعلم" عند تشومسكي (1987)⁽¹¹⁾، يتحول إلى افتراض وجود جهاز بمواصفات معينة. هذا الجهاز، يتلقى إشارات حسية تؤدي إلى تغييرات على مستوى حالة الذهن/ الدماغ، وهناك يتم الالتقاء بين الذهني والمعرفي.

(11) أنظر مقاله: "حول طبيعة واستعمال واكتساب اللغة"، منشور بالفرنسية في ترجمة بولوك.

لقد كانت اللغة، في الطرح التوليدي، مرآة للدماغ، تعكس خصائصه الأساسية، وتعبر عن عملياته في التوليد والمعالجة. ثم عرف المجال اللغوي تطوراً عميقاً، تم فيه توسيع وإغناء التصورات التقليدية، في ضوء النظريات الرياضية والحاسوبية.

استخلص تشومسكي، من نتائج الثورة المعرفية، أن إشكالات الاكتساب الرئيسية يمكن تنظيمها في أربع إشكالات هي:

- الاشكال الأول: النحو نظرية للغة.

في هذا الإشكال، تساءل تشومسكي عن طبيعة نظام المعرفة، المثبت في دماغ إنسان يتكلم ويفهم اللغة. ويجيب بأن النحو - التوليدي - نظرية صريحة للغة، بالمعنى الذي نعتبر فيه الكيمياء نظرية لأشياء العالم الخارجي الفيزيائي. إذ يقوم بوصف المبادئ العميقة، وله تنبؤات تجريبية.

- الإشكال الثاني: اللغة نظام معرفي.

في هذا الإشكال، تساءل الباحث عن الطريقة التي تستعمل بها اللغة في عملية التفكير وفي عملية التعبير عن الفكر. ويجب بأن اللغة نظام معرفي مثبت في الذهن/ الدماغ، وأن النحو - التوليدي - هو الذي يحدده.

- الإشكال الثالث: اللغة تعود إلى أنظمة عصبية.

هذا الإشكال يتلخص في كشف طبيعة الميكانيزمات، التي تقوم عليها الخصائص

المجردة للغة، وكذا آليات استعمالها. وفيه يركز تشومسكي على أهمية معرفة الميكانيزمات العصبية التي تدخل في تمثيل اللغة، ومعرفة الميكانيزمات المتعلقة بالأنظمة التي تتم دخلتها وتطبيقها.

- الإشكال الرابع: الاكتساب نظام معرفي ونظام للمعالجة.

في جوابه عن سؤال الكيفية التي يتم بها الاكتساب اللغوي، وكيفية الاستعمال، انطلق تشومسكي من الإشكال الجوهري المعروف بـ "مشكل أفلاطون"، الذي يمكن تلخيصه كالتالي: كيف نعرف كما هائلا وغنيا، مع أن تجربتنا فقيرة؟

لقد نظر تشومسكي إلى قضية الاكتساب من زاوية وجود "تداعيات" كواقع داخلي. وقد اقترح أن يتم الاهتمام بالميكانيزمات التي تحول هذه التداعيات.

إنه يعتبر ذلك كمحدد للجينات الوراثية التي تحدد الحالة البدئية للملكة اللغوية. ويقول: إننا لا نعرف أي شيء عن تلك الميكانيزمات، لكن الجميع مقتنع بأن هذه الطريقة التي يجب بها التفكير في الموضوع.

الاكتساب في المشروع التوليدي، بوصفه نظرية حديثة، يبدأ من الدماغ الذي هو محل مبادئ اللغة الأولى. في حين تقوم التجربة - في المحيط - بإثارة هذه المبادئ، كي تصبح في متناول الاستعمال.

3. اكتساب المعجم والمعجم الذهني.

3-1. ملاحظات أولى،

افترض في عدد من الدراسات⁽¹²⁾، أن كل متكلم بلغة معينة تكون لديه معلومات مفصلة حول مفردات هذه اللغة، وأنه يجب على كل نظرية لغوية أن تعكس هذا الأمر. لذلك، نجد أن نظرية للغة تتضمن، من بين ما تتضمنه من مكونات، المكون المعجمي الذي توكل إليه عملية البث في خصائص المفردات، في إطارها وفي فراديتها وكذا إنتاجيتها للمعاني والدلالات. في هذا الإطار، لاحظ كل من تشومسكي ولايسنك (1991)⁽¹³⁾ أن المعجم هو بمثابة مستودع أو مخزون للغة. وأن خصائص المفردات فيه، تتوزعها مستويات النحو من صوارة، وصرافة، وتركيب، ودلالة، واستعمال أو تداول. وخصوصا خصائص المفردات الانتقائية

(12) الملاحظات في هذه الفقرة، اعتمدنا فيها أساسا عمل م. مكركتي (1990)، الفصل الثالث، ص. 48/34.

(13) "Principle and parameters theory"

الدلالية، والخصائص المحورية للرؤوس المعجمية من : أفعال، وأسماء، وصفات، إضافة إلى ترخيصاتها .

لقد تطور البحث في المعجم في السنوات الأخيرة، خصوصاً في المرجعية التوليدية والمرجعية المعرفية. مما ساهم في توضيح العلاقة بين مجال الدراسة المعجمية النظرية (Lexicology) ومجال الصناعة المعجمية⁽¹⁴⁾ (lexicography). متجاوزاً بذلك، الطروحات التقليدية التي كانت تعتبره ملحفاً للنحو (Appendix). وأيضاً، الطروحات التي كانت تعتبره فرعاً من التركيب، شأنه شأن "مبدأ المعجمة" (Lexicalisation principale)، الذي كان يلحق المفردات تحت العُجْر المناسبة المشرفة على المستويات المقولية.

لم يعد المعجم أيضاً، مجرد لائحة (List) من الاستثناءات، كما كانت تتصوره بعض هذه الدراسات. بل بحثت أعمال في ضرورة ربطه بمبادئ عامة.

تنقسم المبادئ، في هذا المستوى، إلى صنفين: مبادئ تعود إلى النحو العام (UG)، ثم مبادئ أخرى مرتبطة باللغات ووسائطها الخاصة.

المهم في إجراء موقعة المكون المعجمي، وتوضيح علاقاته بباقي مستويات النحو، الإقرار بتدخله فيها جميعاً. بحيث يسهم التدقيق في رسم حدوده، في تقديم تنظيم كاف للنحو. ولا سيما إذا تعلق الأمر بالاكتساب، وخصائصه العامة.

نتساءل هنا: هل هناك وسائط يتم اكتسابها أثناء التعامل مع وحدات المعجم، من نوع اكتساب الصرفيات الوظيفية؟ أو اكتساب قواعد التركيب التي تضبط اجتياز الجملة؟ ثم ما علاقة الاكتساب اللغوي العادي، الذي يمر الطفل بمراحله، باكتساب التمثيلات الدلالية؟⁽¹⁵⁾

لتوضيح بعض هذه الجوانب، نلخص بعض النتائج المتفرقة لنمو قدرة الطفل، التركيبية والدلالية.

3 - 2. بعض الوسائط وقيمها.

هل نجح المظهر اللغوي في تحقيق الانسجام المطلوب بين نظام القواعد المستبطن، ونظام المعالجة وإنجاز المعطيات؟

(14) "المعجمية" مصطلح من اقتراح عبد الغني أبو العزم. أنظر مقاله: "تطور المصطلحات المعجمية والمعجمية وإشكالية الوضع والترجمة"، مجلة الدراسات المعجمية، عدد 1، يناير 2000.

(15) للنظر في بعض خصائص التمثيلات الدلالية وعلاقتها بالاكتساب، يمكن اعتماد نتائج البحث في الغالي حرشاؤ (1993).

يقتضي الجواب الكافي لمثل هذا السؤال، وجود نظرية للتعليم تضيء الجوانب المجردة لمشكل الاكتساب. وهذا ما حاولت الطروحات اللسانية، والدراسات التي اشتغلت على الاكتساب من وجهة نظر علم النفس اللغوي إن تجيب عليه.

لقد حاول تشومسكي، اعتمادا على منطقاته النظرية، ربط صلة واضحة بين القدرة اللغوية والإنجاز، معتبرا الملكة اللغوية عند الفرد البالغ، مجالا للوصف، ومظهرا للتوليد اللغوي. وذلك سعيا إلى رسم خصائص النحو الكلي الفطري، الذي اعتبره نسقا من المبادئ المثبت في الدماغ⁽¹⁶⁾.

لاحظت بعض الدراسات، في هذا الإطار، أن الطفل، لا يقلد ما يقوله الآباء والآخرين من حوله، ما دام محيطه يحفل بمعطيات متناقضة ومعقدة.

ثم، لو نسلم بأن الطفل، يعمل فقط على تقليد ما يسمعه، لما كان بإمكاننا التنبؤ بالطريقة التي سينجز بها جملا، لم يسبق له أن سمعها من قبل.

يتغير النحو في كل مرحلة من مراحل نمو الطفل، حتى يستقر على حالة نهائية مع النضج. فلقد لوحظ أن الطفل يعامل البنى التركيبية في لغته بالتدرج. ومن ذلك مثلا، بنية النفي⁽¹⁷⁾.

لننظر على هذه الجمل:

I want some food

No want some food نفي (1)

No/ don't want some food نفي (2)

I don't want no food نفي (3)

I don't want any food نفي (4)

هذه الجمل، تفيد من جهة أن الطفل يتدرج في استعمال جمل أكثر تعقيدا. ومن جهة أخرى، تفيد بأنه لا يفعل ذلك دون تصنيفه لأداة النفي في حيزها التركيبي.

بالنسبة لاكتساب التمثيلات الدلالية، فإن الافتراض المرافق لها يعتبر الطفل لا يبلغها إلا حينما يصل إلى الربط بين إنجاز اللفظي وتمثالاته المعرفية.

(16) هذا النسق تتوزع خصائصه العامة، في موضوع الاكتساب، الكليات واختلافات اللغات.

(17) في تعامله مع وسيط الاستفهام، لوحظ أن الطفل المغربي يتعلم في البداية، أن هذا الوسيط يكون في صدر الجملة:

- علاش بكيتي؟

- فين مشات ماما؟

في هذا الإطار، حصرت المعالجات، التي نظرت إلى هذا الجانب، النقاش بين اتجاهات ثلاثة⁽¹⁸⁾.

- 1 - اتجاه نفسي من أقطابه بياجي.
- 2 - اتجاه لساني عند تشومسكي أساسا.
- 3 - اتجاه نفس - لساني، تفرع إلى : اتجاه معرفي مع هـ. سانكلير، وإ.ف. كلارك. واتجاه ثاني تجريبي مع ك. نيلسون.
- 3 - 3. المعجم الذهني وعلاقة اللغة بالذاكرة.

إن تحكم الطفل وتطوره في صياغة الأساليب اللغوية، يعود إلى نوعية النحو الذي يجده في محيطه، ثم إلى اندفاعه إلى التواصل بحكم رغبته النوعية في المطابقة بين المظاهر الخارجية المدركة، وصورها الداخلية التي تحدسها تمثلاته الباطنة. لكن، كيف يعامل الطفل مفردات لغته قبل تركيبها في جمل وعبارات؟ ثم ما نوع العمليات التي يقوم بها ذهنه أثناء المعالجة؟

لتقديم إجابات لمثل هذه الأسئلة، نعتمد بعض نتائج البحث حول المعجم الذهني، في المقاربة التي قدمها م. مكررتي (1990).

3 - 3. 1. حالات الذهن مع اللغة.

في بداية مناقشته لعلاقة اللغة بالذاكرة (الذهن)، يثير م. مكررتي (1990)⁽¹⁹⁾ قضية أساسية، يلخصها بأن معرفتنا وإدراكنا للغة، هي نسبيا شحيحة. وأنه، في أحسن الأحوال، يمكننا فقط إنتاج أشكال جزئية، أو القيام ببعض التأملات، وصياغة استعارات حول الأشياء. هذا، في الوقت نفسه الذي نلاحظ فيه أن سمات اللغات تتطور باستمرار، وكذلك خصائصها، والسلوك اللغوي العام. مما يمنحنا بعض التلميحات، منها التساؤل: كيف يمكن للعقل أو الذاكرة أن تتعامل مع شيء ضخم، وواسع جدا هو معجم اللغة؟

(18) الغالي أحرشاو (1993).

الاتجاه النفسي، يعتبر اللغة مظهرا للنشاط التمثيلي. والاتجاه اللساني يعتبرها فطرة مبرمجة، سيرا في الاتجاه الذي رسمه تصور ديكارت في القرن 17. والذي يعتبر دماغ الفرد متوفرا على المبادئ الأولى (في الهندسة واللغة... إلخ). أما الاتجاه الثالث، في شقه التجريبي. فيعتبر أن الدماغ، يتلقى الانطباعات من العالم الخارجي، فيشكل ترابطات على أساسها.

(19) Vocabulary, P. 34

يلاحظ في هذا الإطار، أن للذهن حالات توزع بين:

أ - الدخل (في معنى الشحن أو التزويد بالمعلومات).

ب - التخزين (في معنى تنظيم أو فقط ترك المعلومات في مستودع).

ج - الاسترجاع (في معنى وجود تقنية أو ملكة الاسترداد).

المفهوم الأول يجعل، اللغة ومعناها، مكتوبين معا. والمعنى هنا هو كل المعلومات حول الكلمات: نطقها، وخصائصها الاشتقاقية، وطبقته المقولية... إلخ. وهو ما يجعل البحث عنها يتم بأقل كلفة.

المفهوم الثاني، معناه أن اللغة تكون محفوظة، وأنها ليست مهمة.

أما المفهوم الثالث، فيعني أن اللغة تسترجع أو تعود للذاكرة حين يطلبها الاستعمال.

ملحوظة: بالنسبة للأطفال الذين يتعلمون لغة أهمهم، يكون الدخل اللساني في سنتهم الأولى هو عمليا وفعليا، عبارة عن تدفق صوتي فقط.

4. الاكتساب وعوائق تعليم اللغة.

ذكرنا أعلاه، أن لقضية الاكتساب ارتباطات وثيقة باللغة وبأشكال تعلمها. ثم اتضح في الفقرات التفصيلية، أن مقاربه تستدعي اعتبار مجموعة من مجالات البحث، واستثمار نتائجها، بهدف (تطويره) وفهمه - نظريا وعمليا -، وأيضا للتدخل ودرء أخطاره وسلبياته، على مستوى تعليم اللغة. خصوصا اللغة 2 وعلاقتها باللغة 1.

صحيح أن المبادئ المعرفية العامة، والمبادئ الخاصة باللغة، تلعب دورا هاما في تكوين الطفل، وأنها مؤثرة في فطرته اللغوية. لكن المشاكل تظهر في مراحل التعلم، وتصاحب الطفل أثناء امتلاكه لأدوات النحو الموجهة لإنجازاته. مع العلم أنه من المسلم، أن الكلام الذي يسمعه الطفل، لا يمكن أن يكون أصلا للقدرة اللغوية عنده⁽²⁰⁾.

لقد طرح الفاسي الفهري (1999)⁽²¹⁾، مسألة الاكتساب في إطار التعليم التدريجي للغة، مشيرا إلى المشاكل التي يطرحها تعليم العربية للطفل المغربي، ويطرحها الازدواج اللغوي بين اللغة العامية - الدارجة المغربية مثلا - واللغة الفصحى: اللغة الوطنية الرسمية التي هي كما يقول الباحث: لغة هوية وفكر وثقافة.

(20) سلوبين (1979) و(1939)، ص. 100.

(21) أنظر الفاسي الفهري (1999)، ص. 101.

لقد أكد الباحث كثيرا على دور المدرسة في توفير الخطوط الذهنية، والمادية والاتصالية، لإنجاح اكتساب اللغة واللغات حتى تكون اللغة أداة تفكير وأداة اتصال.

4 - 1. الوضع اللغوي في المغرب.

ليس جديدا أن تذكر أن الوضع اللغوي بالمغرب⁽²²⁾، يطرح كثيرا من الأسئلة يبررها التداخل بين عدد من الأنساق. ورغم أن هذا البلد العربي، ظل محتفظا بكثير من مظاهر الأصالة العربية القديمة، فإن احتفاظه هذا لم يكن لينفي التأثيرات اللغوية الأمازيغية والأجنبية، التي تعاقبت على ألسنته.

يكتسب الطفل المغربي - يقول الفاسي الفهري - لهجة عربية عامية، أو لهجة أمازيغية، في السنتين أو ثلاث السنوات الأولى (قل أن تجد الروض أو دار الحضانة يُسهم في تعليم الفصيحة).

وفي المدارس الحكومية، يبدأ الطفل في تعلم الفصيحة، لكن المعلم الملقن سيجتهد في توظيف العامية إنجاحا لدوره التربوي. وهناك مشاكل أخرى ستظهر حين سيجد الطفل المغربي نفسه مضطرا - لأسباب تربوية توجيهية - لتعلم لغة (ثالثة) هي الفرنسية. كل هذا الوضع، يخلق حالة معقدة عند الطفل المغربي، لعل من سماتها الرئيسية عدم اكتمال أو إنضاج لأي نظام من هذه الأنظمة اللسانية⁽²³⁾.

خاتمة:

حين نصف الذاكرة الإنسانية بأنها "طبيعية"، فنحن لا نفصل - إذاك - في مدى ملاءمتها بين عناصر الدخل، أو التزويد بالمعلومات، وبين قدرتها على تنظيم الكم المخزن، أو قدرتها على التحليل والمعالجة والاقتصاد فيها.

ورغم أن، هناك عوامل عديدة تؤثر على الذاكرة، إيجابا وسلبا، فإن الحالة التي تكون عليها أثناء إنجاز اللغة، أمر مهم ومعقد. ومن الضروري اعتباره، خصوصا أثناء تعلم اللغة 1 واللغة 2 وربما اللغة الأجنبية... وهكذا.

(22) بعض الملاحظات حول الوضع اللغوي بالمغرب، تضمنها مقالنا لسنة (1994)، المعنون: "بناء الكلمة أم بناء المعنى أم هما معا؟".

(23) أنظر الفاسي الفهري، ن.م، ص 9. وفي معرض آخر، يصرح الفاسي الفهري بأن المتكلم في المغرب، وكأن له لسانا مشققا - التشقق اللساني - ولذلك، فهو لا يتقن اللغة العربية، ولا يتقن الفرنسية، ولا أية لغة، في عالم أصبح أحد المحاور الأساسية فيه هو التواصل.

لقد سعينا في الفقرات السابقة إلى توضيح بعض أسباب حدوث الاكتساب معاً، من وجهة نظر لسانية، تراثية وحديثة. وأحياناً من وجهة نظر بيولوجية. كذلك، أثّرنا بعض خصائصه من جانب احتفاظ الذاكرة بالمعلومات أو استرجاعها في إطار ما يعرف ب: "المعجم الذهني".

ونريد في الختام، التأكيد على بعض النقاط، وهي:

- ضرورة بحث مقاييس عمليات الإبداع، الذي تقوم به الذاكرة في اللغة الوطنية والمحلية.
- ضرورة اعتبار الفروق بين اللغة 1 واللغة 2 وربما اللغة 3... في سبيل الكشف عن خصائص الجزء الفطري الكلي، قبل عمليات الاكتساب.
- تشجيع البحوث في أمور الاكتساب، من الوجهة اللسانية واللسانية النفسية.

المراجع العربية

- أبو العزم، عبد الغني (2002)، "المصطلحات المعجمية وإشكالية الوضع والترجمة"، مجلة الدراسات المعجمية، عدد 1 يناير 2002.
- ألبير، نصري نادر، ابن سينا والنفوس البشرية، سلسلة النصوص الفلسفية، منشورات عويدات، بيروت.
- ابن جني، أبو الفتح عثمان، الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، القاهرة.
- ابن خلدون، عبد الرحمن، المقدمة، دار العودة، بيروت، 1988.
- الحمزاوي، محمد رشاد، المعجم العربي، إشكالات ومقاربات، بيت الحكمة، تونس بدون تاريخ.
- جحفة، عبد المجيد، (2000)، مدخل إلى الدلالة الحديثة، دار تبقال، البيضاء.
- باش، يوسف، (1994)، "بناء الكلمة، أم بناء المعنى، أم هما معا؟ عرض قدم في أشغال المائدة المستديرة، المنعقدة في مراكش 3 - 6 فبراير (1994)، حول: "علاقة اللغة العربية باللهجات وبالعامية في المغرب". تنظيم مؤسسة كونراد أديناور، وجمعية اللسانيات بالمغرب". (العرض قيد الطبع بمجلة كلية الآداب ببني ملال).
- باش، يوسف، (2000)، "قضايا في تنظيم مداخل القاموس"، عرض قدم في ندوة: "تعليم اللغة العربية والتعلم اللغوي المتعدد" منشورات معهد الدراسات والأبحاث للتعريب، الرباط، ماي 2002.
- الفاسي الفهري، عبد القادر، (1986)، المعجم العربي، دار تبقال، البيضاء.
- الفاسي الفهري، عبد القادر، (1999)، "اكتساب اللغة العربية والتعلم اللغوي المتعدد" المجلد 4، عدد 1 - 2، دجنبر، 1999.
- الأوراضي، محمد، (1987)، اكتساب اللغة في الفكر العربي القديم، دار الكلام للنشر والتوزيع، (1987).
- المسدي، عبد السلام، (1986)، التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، ط. 1986، 2.

المراجع الأجنبية

Aitchison, J. (1994),

Words and the mind, Cambridge Massachusetts, U.S.A.

Chomsky, N (1987),

“Sur la nature, l’utilisation et l’acquisition du langage”, Trad. J.Y. Pollick, dans :
Recherches Linguistiques de Vincennes.

Chomsky, N & H. Lasnik (1991),

“Principles and parameters theory”,

McCarthy, M, (1990),

Vocabulary, Oxford University Press.

Stobin, D.I., (1979), (1939),

Psycholinguistics, Copy right, Foresman and compagny.